المكتبة الدينية للطريقة العلاوية بمستغانم

الأنموذج الفريد

المشير لخالص التوحيد

تأليف الأستاذ الشيخ

أحمد بن مصطفى العلاوي المستغانمي

الطبعة الرابعة

حقوق الطبع والنقل محفوظة

المطبعة العلاوية بمستغانم

مقدمة الطبعة الجديدة

لكتاب (الانموذج الفريد المشير لخالص التوحيد)

الحمد لله مفيض النعم وواهب الجود والكرم المفضل على اهل معرفته باجل الكرامات فتعرف اليهم باسمه المخزون المكنون حتى شاهدوه في كل شيء وهو بالاشياء محيط .

فصل اللهم على حضرة الهادي الى صراطك المستقيم صلاة مقرونة بالمحبة والتعظيم ، وعلى آله واشياعه الوارثين لاسرار حضرته في الاولين والاخرين .

وبعد : ان كتاب (الانموذج الفريد) للقطب الرباني الشهير الشيخ احمد بن مصطفى العلاوي رحمه الله ، قمة شامخة من قمم الاستاذ فاض به قلمه من سر عظمة الذات ، المعبر عنها بالنقطة ، وعالج اذى مشكلات التوحيد عند ارباب علم الكلام واعلام التصوف على مختلف اذواقهم ومشاربهم ، كل ذلك باقوى عبارة واوضح اسلوب واسمه وكشف عن معنى انطواء جميع الكتب المنزلة في نقطة « بسم الله الرحمن الرحيم » فسبح فيها سبحا طويلا في رحاب الغيب المكتوم والسر المكنون الذي لا يعلمه الا الراسخون في الشهود ، والمشار اليهم في الحديث الشريف « ان من العلم كهيئة المكنون لا يعلمه الا العلماء بالله . . . »

وقد ضرب الشيخ في ذلك بسهم وافر جعله كعبة كل قاصد ومورد كل

سالك في طريق التربية الالهية فاستقع المريدون بمعارفه واسراره الربانية راسما لاتباعه منهجا دينيا في التربية والسلوك بملازمة آداب العبودية وتصفية النفس من الاوصاف المذمومة وتحليتها بالاخلاق المحمودة .

والحافز الى طبع آثار الاستاذ رحمه الله ورضي عنه هو التعرف على معارف علمائنا المعاصرين والتمتع بثمارهم اليانعة ومنابعهم الصافية المستمدة من الفيض الالهي نتيجة التقوى والاخلاص في الاقوال والاعمال والتزامهم لاداب الشرع الشريف متمثلين بقول الشاعر

هو عين الاعيان لكل عبد   هو المقصود من نفس القصيد
وهذا القدر في التحقيق كاف   فكف النفس عن طلب المزيد

والله اسال ان ينفع بها البلاد والعباد ويلهمنا السداد ويعصمنا من الخطا والزلل، انه نعم المولى ونعم المجيب

يحي الطاهر برقة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وكفى

وسلام على عباده الذين اصطفى

أذكرك اللهم باسمك الرحمن الرحيم، وأستخيرك اللهم بعلمك القديم فيما دوناه، وإنه لشيء عظيم، وأسترشدك اللهم برشدك القويم، المتصل بصراطك المستقيم، أن تعصمنا من كل فهم سقيم فإني مظهر الكلام وأنت المتكلم، إذ لا علم لنا إلا ما علمتنا، إنك أنت العليم الحكيم، فضلك تؤتيه من تشاء، وأنت ذو الفضل العظيم، أشكرك اللهم على ما منحتنا، وإنه لخير عميم، وأسألك اللهم بكل قلب سليم أن تصلي صلاة مقرونة بالتعظيم على من قلت فيه: إنك لعلى خلق عظيم، بالمؤمنين رؤوف رحيم، وعلى بقيته الصالحة من هاته الأمة. فأمطر اللهم عليهم سحائب الرحمة، فإنهم جمعونا بك حتى صار نظرنا بعنايتك لا يقع إلا عليك، وتوجهنا برعايتك لا يكون إلا إليك، وأستغفرك من دعواي الوجود، منك بدأ الأمر وإليك يعود.

أَمَّا بَعْدُ، فَيَقُولُ كَثِيرُ المساوِئِ عَبْدُ رَبِّهِ أحمد بن مصطفى العلاوي إِنِّي جَمَعْتُ هَذِهِ السُّطُورَ حَسْبَمَا سَمَحَ لِي بِهِ الشُّعُورُ، وَالبَاعِثُ عَلَى تَحْرِيرِهَا رَغْبَتِي فِي هَذَا الفَنِّ العَظِيمِ، واهتمامًا بما ورد في الأثر الفخيم مِنْ «أَنَّ كُلَّ مَا فِي الصُّحُفِ الأُولَى مطوي في نقطة بسم اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ»، فَأَقُولُ: ورد في الخبر «أن كل ما في الكتب المنزّلة فهو في القُرْآنِ، وَكُلُّ مَا فِي القرآن فهو في الفاتحة، وكل ما في الفاتحة فهو في بسم الله الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ». وورد أيضًا «كل ما في بسم اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ فهو في الباء، وكُلُّ ما في الباء فهو في النقطة التي تحتها» وقد ذكره الجيليّ فِي كِتَابِهِ المُسَمَّى بِالكَهْفِ والرقيم أنه حديث مرفوع، وعِنْدَمَا تَدَاوَلَتْ هَذَا الأَثَرَ الأَقْلَامُ، وَطرق سمع كل خاص وعام، تَشَوَّفَ الجميع لمكنوناته وَالكُلُّ يَرُومُ الإِطِّلَاعَ على محتوياته، واستند على ذلك الإزدحام، فَحَرَّكَتْنِي الغَيْرَةُ، إلى أَنْ وقفت على الأقدام، وتَشَبَّثْتُ للأَخْذِ مِنْ طيبه فَوَقَعَ بِيَدَيَّ العَرْفُ مِنْ أَصْله، واستخرجته من بين الاكام، وَدَخَلْتُ بِهِ عَلَى العُلَمَاءِ الأَعْلَامِ، فتناولوه بيد التبجيل والتَّعْظِيمِ، وَالكُلُّ

يقول: «إن هذا إلا ملك كريم»، وقلت إنه مباين لمقامي، إذ هي رمية من غير رام، فأجاب الحال: «وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى».

مقدمة الكتاب

قال عليه الصلاة والسلام: «من كتم علماً يعرفه بريء من الإيمان»، وعليه فتعين على العالم أن لا يكتم معلوماته، لما في هذا الحديث من الوعيد. ولا يلزم منه إفشاء سائر العلوم، إذ منها ما لا يحل إفشاؤه[1] إلا على سبيل التورية، كما في هذا الأثر الذي هو موضوع رسالتنا، وقد استبعدت ظاهره الإفهام، فلم تتداوله إلا على سبيل الإيمان به، ولهم العذر في ذلك، إذ من يطيق أن يرى كل

---

(1) يعني إلا بين أهله، وهو المعبر عنه بعلم الخاصة. قال الإمام علي كرم الله وجهه: لقد دمجت على مكنون علم لو بحت به لاضطربتم اضطراب الأرشية في الطوى البعيدة. نقله في نهج البلاغة.

الكُتُبِ المُنَزَّلَةِ عَلَى اختلافِ متعلقاتها لفظًا ومعنًى في نقطةِ الباءِ مَعَ صِغَرِ الجُرمِ وَقِلَّةِ الفهمِ، والمحجوبُ عن الله أقربُ إلى الإنكارِ منهُ إلى الإقرارِ، فَلِأَجْلِ هَذَا وَجبَ الإستتارُ، لما في الحديث: (إنَّ مِنَ العِلْمِ كَهَيْئَةِ المَكْنُونِ لايَعْلَمُهُ إلاّ العلماء بالله فإذا أظهروهُ أنكرتْهُ أهلُ الغِرَّةِ بِاللَّهِ). قُلتُ لايَنبغي للعاقلِ أنْ يعجلَ بالإعتراضِ عمّا يَسْمَعُهُ مِنَ الكلامِ البليغ، الصّادر من العلماء بالله، وإلاّ يكون دَاخِلاً فِي الشَّطرِ الآخرِ من الحديث. ولما كان مضمونُ الأثرِ يشيرُ إِلَى التَّوحيدِ الخَاصّ لزمَ أنْ لا يكون لي منه مناصٌ، فأشيرُ ببعضِ لوازمِهِ، وَأَجْمَعُ القُلوبَ على ظاهره وباطنه ((وهوعلى جمعهم إذا يشاءُ قديرٌ)). وَإِنِّي كُلّما ذكرتُ إسمًا من أسماء الغيرِ، فذلكَ مِنْ مُقْتَضَى التَّعبيرِ، فلا تفهم الغير على حقيقته، فيفوتك خيرُ ما أشرنا لكَ بِهِ، فَإِنَّا جِئْنَاكَ بِنَبَأٍ عظيمٍ، فاجنح لما يفيدك الإستغراقَ، وَاخْرُجْ مِنَ التَّقييدِ إِلَى الإطْلاقِ، عساك أنْ تفهم ما في النقطةِ، وَمَا يفهمُهَا إلاّ العَالِمُونَ ((وَمَا يُلَقَّاهَا إلاّ ذو حظٍ عظيمٍ)) وكلّما ذكرتُ آدمَ فنعني

به نزول الحق إلى سماء الدنيا، ونعني بالدنيا بطون الكائنات في غياهب
الأسماء والصفات، ونعني بالصفات ظهور الحق لنفسه عند تجليه الأول
وبالأسماء ظهور الصفات لنفسه عند التجلي الثاني، والأول هو عين
الثاني، وهذان رتبتان، هما المعبر عنهما بالأولية والآخرية، والظهور
والبطون، فظهوره في بطونه. وأوله في آخره. ومن هنا يقال لا نفي
ولا إثبات، إنما هو ذات في ذات، وهاته الذات هي المعبر عنها في
لسان القوم بوحدة الشهود، المشار إليها في الأثر الشريف بالنقطة
وهي التي تدفقت منها سائر الكائنات، حسما تقتضيه الأسماء والصفات
وكلما ذكرت النقطة فنعني بها عين الذات المقدسة المسماة بوحدة
الشهود، وكلما ذكرت الألف فنعني به واحد الوجود، المعبر عنه
بالذات المستحقة للربوبية، وكلما ذكرت الباء، فنعني بها التجلي
الأخير، المعبر عنه بالروح الأعظم، ثم بقية الحروف والكلمات
والكلام فعلى حسب ما يقتضيه المقام، وأما محور الكتاب، فهو
دائر على أول الحروف الهجائية، لما لها من المزية « السابقون

السَّابِقُونَ أُولَئِكَ المُقَرَّبُونَ» وهي ا ب ، وكلّ حروفٍ هجائيَّةٍ لا بُدَّ مِن تقدّم الحرفَيْنِ عليها، وتكون بمنزلة البسملة في الكتاب، لأنَّ مجموعها ا ب ، وقد تُزادُ التّاءُ للتّفخيم، فتقول: ابت ، وهي إسمٌ من أسمائه تعالى على اللّغة العبرانيّة ، وبه كان عيسى عليه السّلام يُناجي ربّه ، ومنه قوله : إنّي ذاهبٌ إلى أبي وأبيكم ، أي إلى ربّي وربّكم، وإذا فهمت أنَّ هذين الحرفين لهما معنىً كنت عنها بمعزلٍ ، فلا تستبعد ما سنذكره في النّقطة وفي بقيّة الحروف .

الكلام على النقطة

كانت النّقطة في كنزيّتها قبل تجلّيها بذات الألف ، كما سيأتي إن شاء اللّه ، وكانت الحروف مستهلكة في كنهها الغيبيّ ، إلى أن ظهرت بما بطنت ، وتجلّت بما استترت ، فتشكّلت في مظاهر الحروف كما ترى ، وإذا تحقّقت لم تجد إلّا ذات المداد المعبّر عنه بالنّقطة حسبما قيل :

إنّ الحروف إشارات المداد فلا حرف هناك سوى ذات المداد طلا

كذا الحروف اللواتي صار صنعتها ... وهماً وصنعته صارت وما انتقلا

بطونها كان في غيب المداد كما ... ظهورها كان بالتقدير منه إلى

وهي التقادير منه والشؤون له ... وليس ثم سواه فافهم المثلا

وأنهن سواه لا تقل هي هو ... تخطي ولا هو أيضاً هنّ مختبلا

فإنه كان من قبل الحروف ولا ... حرف ويبقى ولا حرف هناك ولا

وهالك كل حرف في العيان سوى ... وجه المداد على ذاته جعلا

فللحروف ظهور وهي خافية ... وذاك عن ظهور للمداد جلا

والحرف ما زاد شيئاً في المداد ولم ... ينقصه شيئاً ولكن فصّل الجملا

وما تغير بالحرف المداد وهل ... مع المداد وجود للحرف إلّا ؟

ألا فحقق مقالي ما الوجود هنا ... سوى وجود مداد عند من عقلا

وأين ما كان حرف لم يزل معه ... مداده فاعقل الأمثال ممتثلا

والمعنى أنه ليس شيء هناك ظاهر في نفس الحروف سوى ذات النقطة، المعبر عنها بالمداد المطلق، من أجل ما تضمنته من استهلاك سائر الحروف في حقيقتها، قبل التجلي وبعده، إذ ليس للحرف وجود

في الخارج ولو بعد التجلي إلا نفس المداد، فالحروف كائنة بكينونة النقطة لا باستقلال لها، وإذا فهمت ما ذكرناه من استهلاك سائر الحروف في نفس النقطة، فلا يفوتك ما سنذكره من استهلاك سائر الكتب في نفس الكلام، واستهلاك الكلام في نفس الكلمة، واستهلاك الكلمة في نفس الحرف. والمعنى أنه يلزم من عدم الحرف عدم الكلمة، ومن عدم الكلمة عدم الكلام، ومن عدم الكلام عدم الكتاب، إذ لا وجود للكلمة إلا بوجود الحرف إما لفظاً وإما حطاً، والتفصيل فرع الإجمال، والكل مندرج تحت وحدة الشهود، المعبر عنها بالنقطة - كما تقدم - فهي أم لكل كتاب «يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب». جاءت النقطة على خلاف ما في الحروف «ليس كمثله شيء وهو السميع البصير»، فلهذا لا يقع عليها حد التعريف كما يقع على غيرها من الحروف، فهي منزهة عن كل ما يوجد في الحرف من طول وقصر واجتداب فلا تعقل بما يعقل به الحرف رسماً ولفظاً، فسوادها من الحرف معقولة، وكينونتها فيه مجهولة، إلا لمن كان بصره حديداً «أو ألقى السمع

وَهُوَ شَهِيدٌ». وَإِنْ كَانَتِ الْحُرُوفُ مِنْ صِفَتِهَا فَحَقِيقًا لَا تُحِيطُ الصِّفَةُ بِالذَّاتِ، وَالْمَعْنَى أَنَّهَا لَا تَخْتَصُّ بِمَا تَخْتَصُّ بِهِ الذَّاتُ مِنْ جَمِيعِ الْوُجُوهِ، فَالذَّاتُ مُخْتَصَّةٌ بِالتَّنْزِيهِ، وَالصِّفَةُ قَائِمَةٌ بِالتَّشْبِيهِ، وَإِنْ كَانَ التَّشْبِيهُ هُوَ عَيْنُ التَّنْزِيهِ مِنْ حَيْثُ وَحْدَةِ الْمَدَادِ، لِأَنَّ الْحُرُوفَ تَشَابَهَتْ بِبَعْضِهَا، وَالتَّشْبِيهُ لَا يُنَاقِضُ تَنْزِيهَ الْمَدَادِ فِي نَفْسِهِ، وَلَا يُنَاقِضُ وَحْدَتَهُ الْمَوْجُودَةَ فِي كُلِّ حَرْفٍ حَرْفٍ، فَلِهَذَا كَانَ التَّشْبِيهُ عَيْنَ التَّنْزِيهِ، حَيْثُ تَشَابَهَ الْمَدَادُ بِنَفْسِهِ لِنَفْسِهِ «وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ» فَكَيْفَمَا كَانَ وَحَيْثُمَا كَانَ فَهُوَ إِلَهٌ، وَلَا يَمْنَعُكَ مَا تَرَاهُ فِي أَرْضِ التَّشْبِيهِ عَمَّا هُوَ عَلَيْهِ فِي سَمَاءِ التَّنْزِيهِ فَكُلٌّ مِنَ التَّنْزِيهِ وَالتَّشْبِيهِ «فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ»، وَهَذَا مِنْ حَيْثُ الْوَصْفِ الْعَامِّ الْمُتَدَفِّقِ مِنْ فَيَاضِ النُّقْطَةِ عَلَى افْتِقَارِ الْحُرُوفِ، وَأَمَّا وَصْفُهَا الْخَاصُّ اللَّازِمُ لِكُنْهِهَا الْغَيْبِ فَهُوَ لَا يُمْكِنُ ظُهُورُهُ فِي الْحُرُوفِ بِحَالٍ، فَالْحَرْفُ لَا يَحْمِلُ شَيْئًا مِنْ لَوَازِمِ النُّقْطَةِ، لَا فِي الصِّفَةِ وَلَا فِي الْمَعْنَى أَلَا تَرَى أَنَّكَ إِذَا رَسَمْتَ بَعْضًا مِنَ الْحُرُوفِ الْهِجَائِيَّةِ كَمَا هَا ا ب ت ث وَإِنَّكَ تَجِدُ لِكُلِّ حَرْفٍ

حَرْفًا آخَرَ مُمَاثِلًا لَهُ، فَالْبَاءُ تُمَاثِلُهَا التَّاءُ، وَهِيَ تُمَاثِلُهَا الثَّاءُ مَثَلًا، ثُمَّ إِذَا أَرَدْتَ النُّطْقَ بِحَرْفٍ مِنْ هَاتِهِ الْحُرُوفِ تَجِدُ لَهُ مَخْرَجًا فِي النُّطْقِ يَخُصُّهُ، وَلَيْسَ لِلنُّقْطَةِ مَخْرَجٌ خُصُوصِيٌّ، حَتَّى أَنَّكَ إِذَا رَسَمْتَهَا كَمَا هُنَا. تَجِدُ صُورَتَهَا مُبَايِنَةً لِجَمِيعِ الْحُرُوفِ، وَإِذَا أَرَدْتَ التَّلَفُّظَ بِحَقِيقَتِهَا فَإِنَّكَ تَقُولُ النُّقْطَةَ، فَيَجِبُ بِكَ اللَّفْظُ إِلَى حُرُوفٍ لَيْسَتْ مِنْ ذَاتِهَا، وَهِيَ النُّونُ وَالْقَافُ وَالطَّاءُ وَالتَّاءُ، فَاتَّضَحَ لَنَا أَنَّ النُّقْطَةَ مَعْنَاهَا لَا تَحْوِيهِ الْأَلْفَاظُ، فَكُنْهُ ذَاتِ الْبَارِي جَلَّ شَأْنُهُ لَيْسَ لَهُ لَفْظٌ يُفْصِحُ عَنْ مَاهِيَّتِهِ. وَمِنْ أَجْلِ هَذَا كُلَّمَا تَكَلَّمَ عَارِفٌ بِكَلَامٍ يُرِيدُ بِهِ التَّنْزِيهَ، أَوْ نَقُولُ الْبَيَانَ الْكُلِّيَّ لِأَوْصَافِ الذَّاتِ بَرْزَمَ مُبَايِنًا لِقَصْدِهِ لِضِيقِ الْعِبَارَةِ «وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ» وَرُبَّمَا تَبْرُزُ الْكَلِمَةُ تَقْرُبُ مِنَ التَّشْبِيهِ أَوِ التَّعْطِيلِ، وَلَيْسَ مَقْصُودُ الْعَارِفِ إِلَّا التَّوْحِيدُ الْمَحْضُ أَلَا تَرَى أَنَّ الْمُتَلَفِّظَ بِالنُّقْطَةِ هَلْ أَرَادَ التَّلَفُّظَ بِهَا، أَمْ بِالْحُرُوفِ الثَّلَاثَةِ. وَيُشْبِهُ هَذَا مَا كَانَ يَجْرِي عَلَى لِسَانِ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْ ذِكْرِ الْأَبِ وَالِابْنِ وَرُوحِ الْقُدُسِ، وَمَا كَانَ يَقْصِدُ بِذَلِكَ إِلَّا

تَوْحِيدُ الذَّاتِ ، فَاعْتَقَدَ النَّصَارَى «إِنَّ اللّٰه ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَامِنْ إِلٰهٍ إِلَّا إِلٰهٌ وَاحِدٌ» ، وَعَلَيْهِ فَالمتكلم يريدُ تنزيهَ النُّقْطَةِ عَمَّا يُوجَدُ فِي الحُرُوفِ ، فَيَتَكَلَّمُ بِنَفْسِ الحُرُوفِ ، غيرَ أَنَّ الحروف لاتعتبر غيرًا لِوُجُودِ قَيُّومِيَّةِ المَدَادِ بِكُلِّ حَرْفٍ «قُلْ هُوَ القَائِمُ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ» . وَلَوْلَا قَيُّومِيَّتُهُ لَمْ يَرَ مَوْجُودٌ قَائِمَ البُنْيَةِ لِذَاتِهِ بِهَذَا الْإِعْتِبَارِ ، وَبِذَلِكَ أَيْضًا اتَّسَعَتْ دَائِرَةُ الكَلِمَاتِ ، فَكَانَتْ لَانِهَايَةَ لَهَا «قُلْ لَوْكَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ البَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْجِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا» وَكَيْفَ يَنْفَدُ مَنْ لَانَفَادَ لَهُ ، وَهَذِهِ الكَلِمَاتُ هِيَ المُتَجَلِّيَةُ بِسَائِرِ الكَلَامِ «وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ» أَيْ تَجَلَّى بِهَا إِلَى مَرْيَمَ «فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا» فَكُلُّ كَلَامٍ مُفَرَّعٌ عَنِ الكَلِمَةِ ، فَالْكَلِمَةُ كِنَايَةٌ عَنْ تَجَلِّيهِ بِنَفْسِهِ لِنَفْسِهِ وَالْكَلَامُ كِنَايَةٌ عَنْ تَجَلِّيهِ بِخَلْقِهِ لِخَلْقِهِ ، فَالكَلَامُ فَرْعُ الكَلِمَةِ ، وَالكَلِمَةُ فَرْعُ الحُرُوفِ ، وَالحُرُوفُ فَرْعُ النُّقْطَةِ ، وَالنُّقْطَةُ هِيَ السِّرُّ المُحِيطُ بِالْجَمِيعِ «وَكَانَ اللّٰهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطًا» وَعَلَيْهِ إِذَا جَرَّدْتَ الحَرْفَ

مِنَ النُّقْطَةِ لَمْ تَجِدْ شَيْئًا، ووجدت الله عنده، وتعرف حينئذٍ أنَّ النُّقْطَةَ هِيَ الظَّاهِرَةُ بِكُلِّ شكل ومسمى، وصورةٍ ومعْنىً، وأمَّا قولنا أنَّ الكَلِمَةَ هِيَ فَرْعٌ عَنِ الحُرُوفِ مع قولنا أن الكلمة هي عَيْنُ النُّقْطَةِ، فنعني بِوُجُودِ الكَلِمَةِ هُنَا وُجُودها الحُكمي لا وجودها العَيْنِيّ. وَيَجْرِي عَلَى الخِلَافِ فِي كَوْنِ الوُجُودِ هل هو عين الموجود، وبه قالت الأشاعرة كَانَتِ النُّقْطَةُ فِي عَمَائِهَا الأول حين لا فصل ولا وصل، وَلا بُعْدَ وَلا قبل وَلا عَرَضَ وَلا طُولَ، وكلُّ الحروف مستهلكةٌ في كُنْهِهَا الغَيْبِيّ - كما تَقَدَّمَ - كَمَا كَانَتِ الكُتُبُ مستهلكة في الحروف على اختلاف مدلولاتها وَاسْتِهْلَاكُ الكُتُبِ فِي الحُرُوفِ يشعر به كلّ من له أدنى شعورٍ، إذ لو فَتَّشْتَ الكِتَابَ لَمْ تَجِدْ فيه ظاهرًا على صفحاته، حاملًا لمعانيه غير الثَّمَانِيَةِ وَعِشْرِينَ حَرْفًا، فهي المتجلية بكل لفظٍ ومعْنىً، تتلون بالألفاظِ المُخْتَلِفَةِ وَالمَعَانِي المُتَبَايِنَةِ إلى «أن يرث الله الأرض ومن عليها» «وَإِلَى اللهِ تَصِيرُ الأُمُورُ»، فتصير الحروف إِلَى مَرْكَزِهَا الأَصْلِيّ حِيْنَ لاشَيْءَ إِلَّا ذَاتُ النُّقْطَةِ. ثمّ اعلم أنّ النُّقْطَةَ كَانَتْ فِي عَمَائِهَا

حالة استهلاك الحروف في ذاتها، وكان لسان كل حرف يطلب ما تقتضيه حقيقته من طول وقصر وعمق، وغير ذلك، وهكذا تحركت دواعي الكلام على وفق ما تقتضيه أوصاف النقطة الكامنة في ذاتها، وعند ذلك تعين التجلي الأول

الكلام على الألف

أقول إن أول ما تجلت به النقطة، وظهرت به ظهورا يقتضي التعريف هو وجود الألف، وجاء على صورة التنزيه أقرب منه للتشبيه، ليكون موجودا في كل الحروف بصفته مباينا لها بحقيقته. ثم اعلم أن ظهور الألف من النقطة ليس معللا بشيء، وإنما رشحت النقطة به فكتب الحسن على وجناتها ألفا، كما ترى، فالألف الأصلي ليس هو أثر القلم، ولا من متعلقاته، إنما هو ناشئ من ميلان النقطة عن مركزها الأصلي، ومهما سالت منها رشحة نشأ عنها ألف لا غير. وقولنا لا يتعلق به القلم، أي لا إيجادا ولا استمدادا

لاستقامته وتنزيهه عما وجد في بقية الحروف من الإعوجاج والإحتداب وغير ذلك، فكأنه «لا يسأل عما يفعل وهم يسألون» أما الحروف فلا بد من جريان القلم عليها، فلا يظهر حرف إلا بواسطة القلم، لما يوجد فيها من التحويف والإستدارة وغير ذلك.

نعم قد يظهر الألف بواسطة القلم مع استغنائه عنه كما تقدم، ولا يخل ذلك بمرتبته التنزيهية، لما يوجد في القلم من صورة الألف طولاً واستقامة، فهو نفس الألف، فيكون ظهور الألف بنفسه لنفسه لا لغيره. فوجود الألف ليس معللاً بشيء على كل حال. وقد تقدم أن الألف كناية عن واحد الوجود، الذي لم يسبق وجوده وجود، فظهور النقطة بالألف هي المسماة بالأولية قبل التجلي، فلا توصف بذلك، كما لا توصف بالآخرية «هو الأول والآخر والظاهر والباطن» ولهذا كان هو أول الحروف الهجائية، فأوليته لا تخفى على البصير، وإذا ثبتت له الأولية فلا محالة تتمحض الآخرية. ولهذا كان آخر الحروف الهجائية أيضاً، ويسمى همزة، وكأنه يقول بلسان

حَالِهِ إِلَى الحُرُوفِ «إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا» نعم «وَإِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الأُمُورُ». وَأَمَّا ظُهُورُهُ فِي الحُرُوفِ فهو معقول، إِنْ تَأَمَّلْتَهُ تَجِدْ مَا مِنْ حَرْفٍ إِلَّا وَمَادَّتُهُ ومساحته مأخوذة من الألِفِ، فَمَا الحَاءُ إِلَّا أَلِفٌ مُحْدَوْدِبٌ، وَمَا المِيمُ إِلَّا ألف مستدير. وهكذا ظهور الألِفِ فِي كُلِّ حَرْفٍ حَسْبَمَا اقتضته حكمته، ولكن لا تدركه الأَبْصَارُ، وَهُوَ مَعْنَى البُطُونِ. وَمِن المعلوم أن الإنسان كَائِنًا مَنْ كَانَ لَا يُدْرِكُ وُجُودَ الأَلِفِ فِي دَائِرَةِ المِيمِ إلا بعد الإستخدام، وما مَنَعَنَا عَنْ إِدْرَاكِهِ إِلَّا وُجُودُ استدارته، حيث تحلى بصفة لَيْسَتْ مَعْقُولَةً عِنْدَنَا، وَهُوَ نَفْسُ الحِجَابِ، وقيل في ذلك:

هُوَ إِمْكَانُ كُلِّ شَيْءٍ بَدَى	وهو بعين الرسوم نَفْسُ القُيُودِ
وَلَهُ دَوْرَةٌ كَلَمْحَةِ بَرْقٍ	هي من عينِ وَقْفَةٍ وَجُمُودِ
وَهُوَ أَمْرُ الإِلَهِ فِي كُلِّ خَلْقٍ	بالنفاذ في الشَّقَا وَالسُّعُودِ
أَلِفٌ بِاسْتِقَامَةٍ وَهِيَ مِيمٌ	حيث دارت في خِدْمَةِ المَعْبُودِ
وَالوُجُودُ الوُجُودُ مَازَالَ عَمَّا	كان فيه بخطها المَمْدُودِ

جاء في الخبر أن الله تعالى يظهر لأهل المحشر على صفة ليست معقولة عندهم، فيتعوذون منه. قلت لا يتعوذ منه في الآخرة إلا من جهله في هذه الدار وتعوذ منه «يموت المرء على ما عاش عليه ويحشر على ما مات عليه» «فمن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى». كان جبرائيل يأتي للنبي عليهما السلام على صورة دحية الكلبي، فهل ذلك نقصان في مرتبته، حيث ظهر على غير صفته الخاصة، كلا بل ذلك لشدة كماله، وهل منعه صلى الله عليه وسلم ذلك عن إدراكه كلا، بل كان يأخذ منه حالة التشبه ما يأخذ منه حالة التنزيه، فيتلقى منه على أية صورة كانت. ولم يثبت عنه صلى الله عليه وسلم أنه تعوذ منه، بخلاف سيدتنا مريم، فإنها تعوذت عندما تمثل لها بشرا سويا، فقالت: «أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا»، وما ذلك إلا لقصور معرفتها بالنسبة لمعرفة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فظنت أن جبرائيل ليس له إلا صفة مخصوصة، ولا يمكنه التنزل إلى غيرها، ففاتها الحضور مع روح الله لولا أن قال لها: «إني رسول

رَبِّكِ لِأَهِبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا» ، فَصمتْ نظرتُها حينئذٍ في جبْرائيلَ ، وَاستغفرتِ اللهَ ممّا كانت عليه . وهكذا يقعُ لِكلِّ مَن تَغفَّلَ عَنْ ظُهورِ الحقِّ في هذا العالم ، مع علمه بأنّه محلٌّ للظُّهورِ ، وهناك موانعُ : المانعُ الأوّلُ مِن إدراكِه عدمُ الشعور والمانعُ الثّاني سوءُ الفهمِ وعدمُ العِلْم ، وبالجملةِ هو تحجيرٌ على الألوهيّةِ ، حيثُ قيّدْناها بأوْصافٍ مخصوصةٍ ، وألزمْناها أنْ لا تخرُجَ عنها ، ففاتَنا خيرُ بقيّةِ الصِّفاتِ الّتي تجلّتْ بها الآن ، وقبْلَ الآن ، وبعْدَ الآن ، والكلُّ عنها بمعزلٍ ، إلّا من لقِيَ اللهَ بقلْبٍ سليمٍ ، وعرفَ الألفَ في دائرةِ الميم . الحقُّ عزّ وجلَّ لهُ الإختيارُ التّامُّ والمشيئةُ النّافذةُ في التّجلّي «لا يُسأَلُ عمّا يفعلُ وهُمْ يُسْأَلونَ» وهل يريدونَ معاينةَ الألوهيّةِ إذا ظهرتْ بصِفةٍ ليستْ معقولةً عندهمْ «قُلْ أتّخذتُمْ عِندَ اللهِ عهدًا فلَنْ يُخْلِفَ اللهُ عهدَهُ أمْ تقولونَ على اللهِ ما لا تعلمونَ» ، فلهُ عزَّ وجلَّ أنْ يظهرَ لِمَنْ شاءَ ، كيفَ شاءَ ، وبما شاء . ألَمْ يبلُغكَ أنَّه رآهُ عليْهِ الصّلاةُ والسّلامُ على صورةِ شابٍّ أمردٍ ، وقدْ ظهرَ

لإبراهيم عليه السلام في بعض الأجرام السماوية ، وقد شاهدته أكابر العارفين في كل صورة ومعنى ، ولفظ ومعنى ، على اختلاف طبقاتهم « تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض » . ومن ذلك ما ذكر عمر بن الفارض رضي الله عنه ، حيث يقول :

فحرا ءيت في سواك لعين ... بك قرت وما رأيت سواك
وكذاك الخليل قلب قبلي ... طرفه حين راقب الأفلاك

وقد يشتد ظهور الحق في بعض المظاهر دون بعض ، فلا تستعصي ملاحظته للناظر ، ألا ترى أن الألف يمكن معرفته في بعض الحروف دون بعض ، فصورة اللام تقرب من صورته مثلاً ، وفي باء البسملة ما يشعرك بظهور الألف فيها ، وأما فيما سوى ذلك من الحروف فتتعذر معرفته إلا للقليل ، وأما بالنظر إلى الكل فإنه يجهل رتبة الألف ، فمنهم من يعرفه في الأولية ويجهله في الآخرية ، ومنهم من يعرفه في الرتبتين ، وعلى كل حال من لم يعرفه في كل حرف صغير وكبير ، طويل وقصير ، أول وآخر ، فهو قائل بالجهة ، ولم يشعر

وَإِذَا فَهِمْتَ أَنَّ الأَلِفَ هُوَ المُتَجَلِّي بِكُلِّ حَرْفٍ، فَهَلْ ذَلِكَ نُقْصَانٌ فِي مَرْتَبَتِهِ التَّنْزِيهِيَّةِ مَعَ إِبْقَائِهِ عَلَى صِفَتِهِ الخَاصَّةِ، كَلَّا، فَحَقِيقَةُ الأَلِفِ لَمْ تَزَلْ عَلَى حَقِيقَتِهَا، وَلَا أَرَى نُقْصَانًا فِي ذَلِكَ، بَلْ أَرَاهُ مِنْ كَمَالَاتِهِ، وَأَرَى النُّقْصَانَ - وَاللَّهُ أَعْلَمُ - فِيمَنْ أَلْزَمَهُ صِفَةً لَا يَتَعَدَّاهَا إِلَى غَيْرِهَا، فَقَدْ حَصَرَهُ وَقَيَّدَهُ وَجَهِلَهُ وَشَبَّهَهُ وَجَعَلَهُ شَيْئًا كَبَقِيَّةِ الأَشْيَاءِ، وَحَقِيقَةُ المَعْرِفَةِ اللَّائِقَةِ بِمَقَامِهِ، هُوَ أَنْ تَرَى الأَلِفَ مُتَجَلِّيًا بِكُلِّ لَفْظٍ وَتَصْنِيفٍ فَالْكُلُّ أَلِفٌ تَجِدُهُ مُتَلَوِّنًا بِكُلِّ حَرْفٍ، ظَاهِرًا بِكُلِّ وَصْفٍ، حَائِزًا مَرَاتِبَ الوُجُودِ، دَائِرًا وَمَمْدُودًا، مُفْرَدًا وَمَعْدُودًا، فَتَقُولُ حِينَئِذٍ لَوْلَا الأَلِفُ مَا وَقَعَ التَّأْلِيفُ، فَكُلٌّ مِنَ الأُلْفَةِ وَالتَّأْلِيفِ مُشْتَقٌّ مِنَ الأَلِفِ، فَالنُّقْطَةُ ظَاهِرَةٌ بِالأَلِفِ، وَالأَلِفُ ظَاهِرٌ بِسَائِرِ التَّآلِيفِ، وَلَيْسَ بَعْدَ هَذَا التَّعْرِيفِ تَعْرِيفٌ. وَلَعَلَّكَ تَقُولُ مَنْ أَلَّفَ هَذَا التَّأْلِيفَ، وَصَيَّرَ الحُرُوفَ أَلِفًا، أَقُولُ اللَّهُ هُوَ المُؤَلِّفُ «لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ»، أَيْ هُوَ الَّذِي صَيَّرَ الجَمِيعَ أَلِفًا، وَيَكُونُ اسْتِوَاءُ الأَلِفِ عَلَى الحُرُوفِ مِنْ بَابِ

استواء الظاهر على ما به ظهر «له ما في السموات وما في الأرض وما بينهما وما تحت الثرى».

هو الحق المحيط بكل شيء هو الرحمن ذو العرش المجيد
هو النور المبين بغير شك هو الرب المحجب بالعبيد
هو المشهود في الأشهاد يبدو فيخفيه الشهود عن الشهيد
هو عين الأعيان لكل عين هو المقصود من نفس القصيد
وهذا القدر في التحقيق كاف فكف النفس عن طلب المزيد

قال عليه الصلاة والسلام: (كان الله ولا شيء معه)، فتأمل هذه الكينونة إن كانت تفيد الدوام والإستمرار فما تقول فهل تتوهم وجود الغير أيها العاقل، بل ولو تحمدته لاتضح عندك أن الألف هو الأول والآخر، والظاهر والباطن، ولا يمنعك من معرفة الألف ما تراه من اعوجاج الحروف، فكل لحكمة يخفيها الشهود عن الشهيد. جاء في الخبر أن الله ينزل إلى سماء الدنيا في الثلث الأخير من الليل فاستوى إلى السماء وهي دخان، وهل هذا إلا من تنزله. ومنه أيضًا

اسْتِوَاؤُهُ عَلَى الْعَرْشِ، فَإِيَّاكَ أَنْ تَفْهَمَ النُّزُولَ وَتُنْكِرَ التَّنَزُّلَ، فَكُلَّمَا ذُكِرَ النُّزُولُ إِلَّا وَالْمُرَادُ بِهِ التَّنَزُّلُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، وَمِنْهُ نُزُولُ الْقُرْآنِ مِنْ مَكَانَتِهِ التَّنْزِيهِيَّةِ اللَّازِمَةِ لِلصِّفَةِ الْأَزَلِيَّةِ إِلَى أَنْ صَارَ حُرُوفًا وَأَصْوَاتًا، وَهَلْ ذَلِكَ يَمْنَعُنَا عَنْ تَنْزِيهِهِ، لَا، وَلَكِنْ تَوَهَّمَهُ الْبَعْضُ حَتَّى قَالَ أَنَّهُ مَخْلُوقٌ، وَكُلُّ ذَلِكَ بِسَبَبِ تَنَزُّلِهِ إِلَى صِفَةٍ لَيْسَتْ فِي إِمْكَانِ الْعَبْدِ، وَلَا يَلْزَمُ مِنْ عَدَمِ وُجُودِهَا فِي إِمْكَانِهِ عَدَمُ وُجُودِهَا فِي إِمْكَانِ الْأُلُوهِيَّةِ، وَهَكَذَا قِيلَ أَيْضًا فِي مُنْزَلِ الْقُرْآنِ لَمَّا ظَهَرَ مِنْ وَرَاءِ حِجَابِ الْكَائِنَاتِ «أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا» وَهُوَ يَقُولُ: «وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ»، وَهَلْ الْحَقُّ غَيْرُهُ؟ كَلَّا، إِنَّمَا هُوَ ذَاتُهُ وَعَيْنُهُ.

وَمِنْ أَعْجَبِ الْأَمْرِ هَذَا الْخَفَا ... وَهَذَا الظُّهُورُ لِأَهْلِ الْوَفَا

وَمَا فِي الْوُجُودِ سِوَى وَاحِدٍ ... وَلَكِنْ تَكَثَّرَ لَمَّا صَفَا

وَأَصْلُ جَمِيعِ الْوَرَى نُقْطَةٌ ... عَلَى عَيْنِ امْرِئٍ بَدَتْ أَحْرُفَا

وَتِلْكَ الْحُرُوفُ غَدَتْ كَلِمَةً ... فَكَانَتْ مُشُوقَ الْحَشَا الْمُدْنَفَا

فَإِنْ قُلْتَ لَاشَيْءَ قُلْنَا نَعَمْ هُوَ الْحَقُّ وَالشَّيْءُ فِيهِ اخْتَفَى

وَإِنْ قُلْتَ شَيْئًا نَقُولُ الَّذِي لَهُ الْحَقُّ أَثْبَتَ كَيْفَ انْتَفَى

الْأَلِفُ مِنْ حَيْثُ ذَاتِهِ مُنَزَّهٌ، وَمِنْ حَيْثُ صِفَتِهِ مُشَبَّهٌ بِبَقِيَّةِ الْحُرُوفِ إِذِ الْحَرْفُ لَا يُمْكِنُهُ أَنْ يَقُومَ بِصِفَةِ لَا تُوجَدُ فِي ذَاتِ الْأَلِفِ، وَلَوْ قَامَ بِمَا سِوَى ذَلِكَ لَزِمَ عَدَمُ إِحَاطَةِ الْأَلِفِ بِتَجَلِّيَاتِهِ، وَذَلِكَ لَا يُعْقَلُ، لِمَا تَقَدَّمَ مِنْ إِحَاطَتِهِ بِجَمِيعِ الْحُرُوفِ ﴿ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطًا ﴾ وَالْمُرَادُ بِالْإِحَاطَةِ هُنَا الْإِحَاطَةُ الْعَيْنِيَّةُ لَا الدَّوْرِيَّةُ، لِمَا يَلْزَمُ مَعَهَا مِنْ وُجُودِ الْغَيْرِيَّةِ، وَالْحَالَةُ لَا غَيْرُ، لِمَا ذَكَرْنَا مِنْ أَنَّ الْأَلِفَ هُوَ الظَّاهِرُ بِسَائِرِ الْحُرُوفِ عَلَى اخْتِلَافِ مَقَادِيرِهَا ﴿ ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾.

الكلام على الباء

أقول إنّ الباء هي أوّل صورة ظهر بها الألف، ولهذا تجلّى فيها بما لم يتجلّ به في غيرها، أي بصفتها الخاصة. وسبب ذلك عدم الواسطة بينهما، وما قارب الشيء يعطي حكمه «فكان قاب قوسين أو أدنى فأوحى إلى عبده ما أوحى»، وقد يظهر في القريب ما لا يظهر في البعيد. ولا أرى في الحروف ما هو أقرب للألف من الباء. قال، وقوله الحقّ: «ما زال عبدي يتقرّب إليّ بالنوافل حتّى أحبّه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ...إلخ»، فلهذا جاءت الباء بأوصافه «خلق الله آدم على صورته»، وليس المراد بآدم إلا الإنسان الأول، وهو روح الوجود. فلهذا خلفه في أرضه، وأمر الملائكة بالسجود إليه.

ولو لم يكن في وجه آدم حسنه لما سجد الأملاك وهي خواضع

وهل كان ذلك السجود لغيره، كلا «إن الله لا يغفر أن يشرك به»

جاءت باءُ البسملةِ على خلافِ عادتها صورةً وحكماً «وإنك لعلى خلقٍ عظيمٍ»، وليست عظمتها غير عظمة الألف، بل «ومن يطع الرسول فقد أطاع الله»، نائبةً منابه. ألا ترى أن الباء في غير البسملة لم تستطل كما فيها، فإن ذلك الطول هو نفس الألف المحذوف في البسملة، لأن الأصل في بسم الله الرحمن الرحيم باسم الله، فحذف الألف من محله، وظهر على صورة الباء، فكانت الباء على صورة الألف «فاسمع به وأبصر» ومنه قوله تعالى: «تراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون» ومن المعلوم أن الإنسان لا يبصر الألف في صورة الباء، وعليه فالباء في البسملة قائمة مقام الألف، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام: «لي وقت لا يسعني فيه غير ربي» وأنت ترى أن الباء لا يسعها في بعض الأوقات إلا الألف، صورةً ونقطةً، إلا أن نقطة الألف من أعلاه، ونقطة الباء من أسفلها، وكل لحكمة يعقلها العالمون ففهمناها سلمنا جاءت نقطة الألف من أعلاه، كما ترى (أ)، لتفيدك أنها ظهرت به، وليس هو غيرها،

إِنَّمَا هِيَ عَيْنٌ دَمَعَتْ، وَقَطْرَةٌ رشحتْ، وبانحدارها سُمِّيَتْ أَلِفًا، وَلَا نقص فِيمَا تنزَّلَتْ بِهِ النُّقْطَةُ لِسَلَامَةِ الأَلِفِ وبراءته من العيوبِ، فبقيتْ نُقْطَةً عَلَى تَنْزِيهِهَا القَدِيمِ «وإنّا فوقهم قاهرون». وَمَا وَقَعَ التَّنَزُّلُ الكُلِّيّ إِلَّا عِنْدَ ظُهُورِ الأَلِفِ، فالباءُ، ثمّ بقيّة الحُرُوفِ، فَكَانَ مِنْهُ مَا كَانَ، وَإِنْ كَانَتِ البَاءُ جاءت على صُورَةِ الأَلِفِ فَقَدِ اختلَّ الحَدُّ وَالتَّعْرِيفُ، البَاءُ بَاءٌ، والألف أَلفٌ، فظُهُورُ الأَلِفِ بِالحُرِّيَّةِ وَالبَاءِ بِالتَّكْلِيفِ، فَلِهَذَا تَعَيَّنَ التَّعْرِيفُ لئلّا ننفي عن الحُرُوفِ أَنْ تَتَضَمَّنَ مَعْنَى الأَلِفِ، أو نعتقد أنّ الحرية تنافي التَّكْلِيفَ، فَجَاءَتِ النُّقْطَةُ مِنْ تَحْتِ البَاءِ، وَهِيَ الَّتِي مِنْ فَوقِ الأَلِفِ. وَلِنَسْتَفِيدَ أَيْضًا إِنَّ النُّقْطَةَ هِيَ الَّتِي ظَهَرَتْ بِالسُّفْلِيَّاتِ، كما أنّها ظهرتْ بِالعُلْوِيَّاتِ، فَظُهُورُهَا بِالذَّاتِ لَا يَمْنَعُ تَعَرُّفَهَا لنا بالصّمات. قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: (لَوْ دَلَّيْتُمْ بِحَبْلٍ إِلَى الأَرْضِ السَّابِعَةِ لهبطتمْ عَلَى اللّه)، فَكَانَتْ نُقْطَةُ البَاءِ مِنْ أَسْفَلَ تُشِيرُ إِلَى مَحْوِ الكُلِّ «كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ» «وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الأَرْضِ إِلَهٌ». وَلِنَفْهَمَ أَنَّ النُّقْطَةَ

ظَهَرَتْ بِالْأَلِفِ وَتَسَتَّرَتْ بِالْبَاءِ كَانَتْ هِيَ فَوْقَ الْأَلِفِ، وَكَانَتِ الْبَاءُ فَوْقَهَا، فَوُجُودُ الْبَاءِ فَوْقَ النُّقْطَةِ شَبَهٌ وُجُودِ الْجِدَارِ عَلَى الْكَنْزِ الَّذِي أَخَافَهُ الْخَضِرُ أَنْ يَنْقَضَّ، وَلِهَذَا قِيلَ فِي رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِجَابُ اللَّهِ الْأَعْظَمُ الْقَائِمُ بَيْنَ يَدَيْهِ، وَعِنْدَمَا عَرَفَتِ الْبَاءُ مَنْزِلَتَهَا عِنْدَ الْأَلِفِ قَامَتْ بِمَا وَجَبَ عَلَيْهَا تَعْرِيفًا وَتَكْلِيفًا فَمِنَ التَّعْرِيفِ الْتِصَاقُهَا بِبَقِيَّةِ الْحُرُوفِ، لِأَنَّهَا مِنْ جِنْسِهَا، بِخِلَافِ الْأَلِفِ، فَإِنَّهُ لَا يَتَّصِلُ بِالْحُرُوفِ إِذَا كَانَ فِي أَوَّلِهَا، إِنَّمَا الِانْتِهَاءُ إِلَيْهِ «وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى». وَإِذَا حَصَّصْتَ الْبَاءَ بِمَعَانِي كَثِيرَةٍ فَثَمَرَةُ جَمِيعِ مَعَانِيهَا رَاجِعَةٌ لِمَعْرِفَةِ الْأَلِفِ، فَنَقُولُ هِيَ سَبَبٌ أَوْ بَابٌ لِلدُّخُولِ عَلَى الْأَلِفِ «وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا». كَانَتِ الْبَاءُ فِي الْبَسْمَلَةِ قَبْلَ الْأَلِفِ وَحُذِفَ الْأَلِفُ لِدَلَالَتِهَا عَلَيْهِ - كَمَا تَقَدَّمَ - فَبَقِيَتِ الْبَاءُ بِدُونِ أَلِفٍ، كَأَنَّهَا تَقُولُ بِي إِسْمُ اللَّهِ، فَضَمِيرُهَا يُشِيرُ لِلْإِسْمِ قَائِلٌ أَنَا أَظْهَرْتُكَ كَمَا أَنْتَ أَظْهَرْتَنِي، وَبِمِثْلِ هَذَا أَشَارَ الْقَائِلُ:

فَلَوْلَاكَ مَا كُنَّا وَلَوْلَايَ لَمْ تَكُنْ ... فَكُنْتَ وَكُنَّا وَالْحَقِيقَةُ تَدْرَى

فَإِيَّاكَ نَعْنِي بِالْمَعَزَّةِ وَالْغِنَى وَإِيَّايَ نَعْنِي بِالْفَقِيرِ وَلَا فَقْرَا

وَلِهَذَا يُقَالُ أَنَّ لِسْمِ اللهِ مِنَ الْعَارِفِ كَكَلِمَةِ كُنْ مِنَ الْحَقِّ عَزَّ وَجَلَّ لِأَنَّهَا كَلِمَةٌ أَثْبَتَتِ الْمَفْعُولَ وَضَمِيرُ الْبَاءِ أَثْبَتَ الْفَاعِلَ، وَضَمِيرُهَا هُوَ ضَمِيرُ الْإِنْسَانِ الْكَامِلِ، أَوْ نَقُولُ رُوحُ الْوُجُودِ. وَكُلُّ مَا أَضْمَرَتْهُ الْبَاءُ فَهُوَ مِنْ لَوَازِمِ الشُّكْرِ. قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «مِنْ كَرَامَتِي عَلَى رَبِّي قُعُودِي عَلَى الْعَرْشِ» مَعَ أَنَّهُ مُسْتَوَى الرَّحْمَنِ، وَلَا يَكُونُ الْتِصَاقُ الْبَاءِ بِالْإِسْمِ الْأَعْظَمِ مِنْ حَيْثُ كَوْنِهَا بَاءً، بَلْ يَكُونُ ذَلِكَ مِنْ حَيْثُ كَوْنِهَا أَلِفًا فِي صُورَةِ بَاءٍ، لِأَنَّ التَّقْدِيرَ فِي بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ إِسْمُ اللهِ مَبْدُوءٌ بِهِ، فَلَا بَاءَ حِينَئِذٍ، إِنَّمَا هُوَ أَلِفٌ، لِأَنَّ التَّقْدِيرَ يَرُدُّ الْأَشْيَاءَ إِلَى أُصُولِهَا «يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكِتَابِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ».

خاتمة

أقول من الممكن ذكر كل حرف على حدته، والإتيان ببعض مكنوناته، ولما في ذلك من التطويل نقتصر على القليل من القليل، وقد تقدم لنا ما للألف من الإحاطة والشمول بكل حرف، فإحاطته بها من حيث الأولية والآخرية إحاطة دورية، ومن حيث الظهور والبطون إحاطة عينية، أي هو لاهي، وهذه غاية معرفتك بالألف فإن عرفته بها فقد وفيت حق معرفته، وإلا فما قدرته حق قدره ولا يمنعك من تنزيه الألف ما تراه من اعوجاج الحروف، فهو لم يزل ألفا، ولن يزال كذلك، فهو ذات والحروف صفات، وتنوع الصفات لا ينافي لازم الذات الذي هو التنزيه، وإن ثبت أن كل باء ألف فلا يلزم أن يكون كل ألف باء، فالبعض لا يشمل الكل، وإلا لزم إحاطة الصفة بذاتها، وذلك لا يعقل، فالباء وإن ظهرت بصورة الألف ولكنها لم تحط بتجلياته، ولو أحاطت لكانت ألفا، وإذا تتعطل كل

التَّجَلِّيَاتِ، وَيَلْزَمُ مِنْهَا تَعْطِيلُ ذَاتِ الْمُتَجَلِّي، وَالْحَالَةُ أَنَّ التَّجَلِّيَ مَوْجُودٌ كَمَا تَرَى، فَتَدَلَّى مِنْ قُدْسِ الْأَلِفِ فَبَاضَ فَتَشَكَّلَ بِالْحُرُوفِ «تُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ» «وَلَوْلَا دِفَاعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ» «وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ». وَالْمَعْنَى أَنَّهُ لَا فَسَادَ فِي الشِّقَاقِ وِفَاقٌ، وَاعْوِجَاجُ الْحُرُوفِ إِسْتِقَامَةٌ لِمَظْهَرِ وِفَاقِهَا، فَلَوْلَا اعْوِجَاجُ الْجِيمِ مَا اتَّضَحَ مَعْنَى الْمِيمِ، فَمَحْمُولُ الْمَحْدُودِبِ غَيْرُ مَحْمُولِ الْمُسْتَقِيمِ «وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا» مَا صَدَرَ مِنَ الْقَلَمِ إِلَّا مَا وَافَقَ الْعِلْمَ كُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ «فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا» «وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ» فَكُلٌّ عَلَى طَاقَتِهِ، إِسْتِقَامَةً وَاعْوِجَاجًا «لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا» فَتَكْلِيفُ الْمُسْتَقِيمِ غَيْرُ تَكْلِيفِ الْمَحْدُودِبِ، فَلِكُلٍّ حُكْمٌ بِحِصَّتِهِ. جَاءَ فِي حَقِّ الْمُسْتَقِيمِ «فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ» وَلَمْ يُحَمِّلْهُ فَوْقَ طَاقَتِهِ، لِأَنَّ الْإِسْتِقَامَةَ كَانَتْ مِنْ نَعْتِهِ، وَجَاءَ فِي حَقِّ مَنْ سِوَاهُ «فَاتَّقُوا اللَّهَ

مَا اسْتَطَعْتُمْ»، أَيْ حَسْبَمَا سَمَحَ لَكُمْ بِهِ ذَلِكَ الْإِعْوِجَاجُ اللَّازِمُ لِذَوَاتِكُمْ «خُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا»، أَيْ لَا بُدَّ مِنْ شَيْءٍ يُنَاقِضُ اسْتِقَامَتَهُ. وَهَذِهِ شَهَادَةٌ مِنَ الْحَقِّ دَلَّتْ عَلَى وُجُودِ اسْتِقَامَتِهِ فِي الْبَاطِنِ وَإِنْ لَمْ تُرَ فِي الظَّاهِرِ. وَلَا بُدَّ مِنْ عَدَمِ وِجْدَانِنَا لَهَا عَدَمُ وُجُودِهَا فِي الْوَاقِعِ، وَمَتَى تَحَقَّقَ بِحَدِّ الِاسْتِقَامَةِ فِي عَيْنِ الْإِعْوِجَاجِ وَهَكَذَا:

أَلَا فَلْتَحَقَّقْ أَنَّ كُلَّ اسْتِقَامَةٍ ... بِعَيْنِ عُوجَاجٍ مَا عَلَيْهَا مُعَوَّلُ

فَإِنَّ اعْوِجَاجَ الْقَوْسِ عَيْنُ اسْتِقَامَةٍ ... فِي يَدَيِ الرَّامِي فَلَا تَتَحَوَّلُ

وَلَمَّا اسْتَقَامَ السَّهْمُ زَالَ بِسُرْعَةٍ ... عَنِ الْقَوْسِ فَافْهَمْ أَيُّهَا الْمُتَطَوِّلُ

وَقَصْدِي بِذَاكَ الْإِعْوِجَاجِ هُوَ الَّذِي ... رَأَتْهُ نُفُوسٌ جَاهِلُونَ فَجَهِلُوا

وَلَا يُفَرِّقُونَ الْحَقَّ مِنْ بَاطِلِ السِّوَى ... وَسِبْطَانُهُمْ يُمْلِي لَهُمْ وَيُسَوِّلُ

وَإِلَّا فَإِنَّ الِاسْتِقَامَةَ عَيْنُ مَا ... هُوَ الشَّرْعُ يَسْمُو مَنْ بِهَا يَتَجَمَّلُ

وَمَا الشَّرْعُ إِلَّا وَالْحَقِيقَةُ عَيْنُهُ ... وَبَيْنَهُمَا قَوْلٌ لِلْفَرْقِ مُفَصَّلُ

وَإِلَى هُنَا انْتَهَى مَا سَمَحَ اللَّهُ بِنَشْرِهِ، وَوَقَفَ الْقَلَمُ وَرَجَعَ

المِدَادُ لِنَفْسِهِ قَائِلاً: «أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ». فَالفَضْلُ بِيَدِ اللهِ لاَ مُمْسِكَ لِفَضْلِهِ وكَانَ الفَرَاغُ مِنْ طَبْعِهِ يَوْمَ الخَمِيسِ الثَّانِي عشر من شعبان سنة 1344 هـ.